

اليحيا.. ودوائر الهم المحكمة !



● «الإنسان الأبد» المعالجة الأخيرة، للفنان عبد الجبار اليحيا، نوفمبر ١٩٨٧م، مقتنيات الفنان.

ذلك كله فأنني كفنان أرفض ان استسلم لتلك الحقيقة، رسم الفنان عبد الجبار اليحيا هذه اللوحة في أواخر عام ١٩٨٧م (نوفمبر ١٩٨٧م) وشارك بها في معرض دولي في اسبانيا كان قد اقيم - على ما اظن - تحت شعار رفض الحرب النووية، ومن بين جميع اللوحات لعدد من الفنانين من مختلف بلاد العالم لم يجد التلفزيون الاسباني انسب من لوحة عبد الجبار اليحيا تعبيراً عن الفكرة، فاختارها طوال اليوم شعرا له، يعرضها على شاشته بين فقرة وأخرى.. هل يحظى اليحيا بتقدير عربي كتقدير العالم له ؟

حتى الآن لانزال نحوم حول اللوحة بعيدا عن سياقها خوفا من الشروع في محاولة لا تتسع لها المساحة رغم العزم على العودة، لان اليحيا يقدم من خلال اعماله المعنى الحقيقي لتلك الكلمة «فنان» التي ارهقت النفس في البحث عن دلالاتها، على صعيد الموضوع والمعالجة... سنبدأ المحاولة مرة أخرى، وانما يعيننا الآن اشارة عابرة الى دأرتين، احدهما داخل الأخرى وجزء منها، يدور في فلكهما اليحيا، الصغرى تمثل موقف الفنان في انتمائه الوطني والكبرى تمثل موقف الفنان في انتمائه الانساني.. لوحته التي سبق الحديث عنها انتماء جدا، يذوق فيها جسد انسان في حبات رمال الوطن وتتخذ خطوط جسمه شكل تضاريس الارض، تماما، ويصطبغ بنفس اللون، وفي لوحته «الانتفاضة» لا يختار من الانسان والوجه والملامح والارض، الا الذراع العملاقة للانسان - حينما يكون وايا كانت جنسيته - المعلقة لرفض الظلم والمهانة، يعطي الموضوع بعده الانساني المطلق لا المحلي المحدود.. وفي لوحة الجندي العائد، الذي يتكوم عليه كل افراد الاسرة ليصبحوا جميعا كيانا متداخلا واحدا، لا تتبين ملامح وجه محدد او زي محدد بل معنى انسان يعود من الموت الى السلام.. وفي هذه الدائرة الكبرى، دائرة الانتماء الانساني للفنان تأتي لوحة «الإنسان الأبد».

رسم اليحيا هذا الموضوع مرتين، الاولى بلون واحد، الاصفر المغمم بالمرض والموت تشوبه قتامة داكنة ومتقدمة، والوجه الانساني يتخذ ملامح انسان الغابة في بداية حياته، وكتب عليها حرفا من لغة لا اعرفها، لغة بدائية اول بعض حروفها شبيه بحروف يونانية، وبالتالي اتخذت اللوحة، بجوها العام اللوني والتشكيلي تكوينات الاسطورة.. انها تنتمي لزمان محدد يوعز باحتمال ان ما دار فيه قد انتهى زمانه مع تحضر الانسان، ولان الفنان لا يريد هذا المعنى فقد اعد رسم اللوحة التي جاءت موضوعا جديدا، ليمسك بالقدار باحساسه بوجود هذا الجدول الدائر ابدًا، والذي تتواصل به الحياة بين الشر والخير، في كل زمان وكل مكان، داخل «الإنسان» الأبد..

في الاساطير اليونانية كان برونثيوس واخوه ابيمثيوس هما اول من وجد على الارض من البشر، وعندما ارسلت لهما امرأة، باندورا، التي يعني اسمها «كل الهدايا»، جائزة يريد بها الانتقام منهما، رفضها الاول وقبلها الثاني..

كانت باندورا تحمل معها صندوقا، عندما فتحه ابيمثيوس انطلقت منه كل الشرور التي عرفها الانسان على الارض، ولم يبق به الا «الامل» قابعا في ركن من اركانها..

هكذا لم يكن التصور الميثولوجي بعيدا عما نعرف، منذ ان كانت الخليقة انسانا وانسانا، كان الامل، وكان محاطا بكل الشرور، كان الامل في ان تتواصل الحياة وكان الاخوان، قابيل وهابيل، يقتتلان، ولم يختلف الامر في شيء منذ ذلك الوقت حتى الآن، فالانسان مازال يمسك ببندقية ويضع اصبعه على الزناد، ويصوب الفوهة نحو انسان آخر، وهبه الله الحياة ولم يهب غيره حق انتهائها، لطمع شخصي..

إن كان الانسان الاول قد استخدم حجرا في قتل اخيه، الحامل لنفس دمه، ابن الام والاب، فجرم انسان اليوم حين يستخدم سلاحا نوويا يفتك بالاف الاطفال لا يقل بشاعة عن قتل الاخ اخاه..

مع كل ذلك لا يفقد الانسان، وسط هذا الشر، امله في الحياة في سلام..

هذا باختصار مغل، موضوع لوحة فنان كبير، عبد الجبار اليحيا، الاختصار مغل لانه يتعجل قراءة اللوحة خارج سياقها والفنان كبير بحكم دائرة كبرى من الهم الانساني يدور بداخلها ويشغلها باقتدار على صعيد الطرح والمعالجة معا..

اللوحة مربعة تقريبا، ليس لها طول وعرض بحيث يوعز امتداد المستطيل بامتداد زمني في الـ «ما قبل» او الـ «ما بعد»، واطن ان اختيار هذا الشكل المربع مدروس بعناية.. الشكل المستطيل يعطيك شريحة مجتزأة قد تختلف عن شريحة سابقة او لاحقة، على حين يعطيك الشكل المربع اغلاقا تاما للموضوع، هذا اوله واخره، يستجمع داخله اطراف الماضي المتناهية، واطراف المستقبل الممكنة او المحتملة وقد اكتسبت حتميتها من ذلك الالتحام مع الماضي داخل اطار واحد.. الزمن هنا مطلق ونهائي بلا حدود، يعطيه الموضوع حتميته التي لا تتغير ابدًا، ولهذا ندرك دلالة اسم اللوحة - واليحيا نادرا ما يسمي لوحاته - المزدوج الذي اصر الفنان ان يسجله بلغتين، العربية واللاتينية: «الإنسان الأبد - Homo Aeternitatus» حيث لا يستخدم - في العربية او اللاتينية - الصفة، الأبدى، و«Aeternitatus» بل الاسم: «الأبد»، واستخدام الاسم - كاستخدام اللغة اللاتينية - كلاهما مكرس لفكرة الحتمية زمانيا ومكانيا..

اللوحة مقسومة الفيا بخط يفصل بين لونين، الازرق، لون السماء، في النصف الاسفل، الاحمر، لون الدم والانفجار، في النصف الاعلى حيث تكون عادة - في حالات اخرى - الوان السماء الصافية، ولكن انفجارا نوويا صبغ السماء هنا بلون الدم، ودفع الى مقدمة اللوحة بصورة الماضي السحيق حين قتل الاخ اخاه.. وتبدل الازمنة هنا مدروس بعناية ايضا، حيث الحاضر، زمن التفجيرات النووية يتراجع الى خلفية اللوحة، كانه الماضي السحيق، وحيث الماضي الضارب في القدم يستيقظ ليتصدر الحاضر في واجهة اللوحة..

الخط اللغوي الذي يقطع اللوحة، خط راسي مائل، من الزاوية الى الزاوية، سرب من حمام ابيض، يشكل مع الخط الافقي علامة الشطب والرفض «x»، كما يقول الفنان «رغم امتلاء الارض بالشرور، تلك التي تدفع بالانسان الى قتل اخيه، ورغم انه من قلب انجاس الدم وتفجره من الانسان الضحية تنطلق حمامات السلام معلنة ان هناك في قاع الصندوق لايزال الامل قابعا، رغم